بين التانكا والهايكو

"تنام العصافير حالمة"
للدكتور عبدالستار البدراني
التجربة الشعرية والتجديد
في فضاءات ورؤى الشعر

د. اسماعيل عبد الوهاب البرادعي
باحث وناقد من العراق

• توطئة

في مجموعة (تنام العصافير حالمة) ، للشاعر عبد الستار البدراني ، محاولة متميزة لإستيراد نوع جديد وتجربة شعرية غريبة عن الشعر العربي ، تعتمد على الطبيعة والوصف الروحي الدقيق للمحيط بصورة جمالية مركزة ، إنها الهايكو التي إنشغلت بها الشعوب الاسيوية ، حيث امتازت هذه القصائد اليابانية المنشأة بتكثيفها الشعري واكتفائها الذاتي من خلال ثلاثة أسطرفقط ، لكن هذه التجربة الشعرية لم تقتصر على اليابانيين فقط، بل أستطاعت ان تتغلغل في الأدب الغربي رويدا رويدا ، فبدأت بأخذ مكانتها وجمهورها في اوربا ، فكانت اول قصيدة هايكو مكتوبة في اوربا ، للشاعر الألماني "هندريك دوف" الذي كان يعمل في التجارة في نكازاكي في اوائل القرن التاسع عشر، وبعد تأثره بنمط الهايكو ، كتب قصيدته التي تعد اول شاهد مكتوب عن الهايكو في اوروبا : (مدي ذراعيك / كسرعة صاعقة /فهما وسادة رحلتي)(١)، ثم بعد ذلك انتشرت الهايكو في الاوساط الادبية الشعرية الغربية والانجليزية ، وكان رائد الهايكو في الشعر الانجليزي عزرة باوند ١٩١٣ .. وتلى ذلك الانتشار دراسات عديدة في تعريف الهايكو ودراسة بناءها وموسيقاها ، فشغلت العديد من القراء والنقاد ، إلا ان التعريف الوافي لها انها قصيدة : "مكثفة مكتفية بذاتها وإن كانت بثلاثة أسطر، وليست مقطعا في قصيدة طويلة تتكون من مقاطع عدة، ولذا فهي لا تحتاج لغيرها كي يكتمل معناها .... وتتنوع بتشكيلها ، وتعكس قدرة الكاتب على توضيفها لأغراضه الشعرية والانسانية المختلفة"(٢)

بغض النظر عن جذورها التاريخية وعن مبتكريها ، فنحن هنا بصدد قراءة وتحليل مكنونات اعمال الشاعر الدكتور عبدالستار البدراني في كتابه (تنام العصافير حالمة) الصادر ضمن سلسلة شعراء نادي الهايكو العربي رقم (١) ، فالقارئ لهذا العمل يستمتع ببنية القصيدة التخيلية ومقدرة الشاعر الوصفية ... مجموعة من الصور الشعرية المختصرة والقصيرة لكنها تترك اثرا كبيرا في التأمل والتفكير الذهبي ، تكمن اغلب مواضيعها في محاور الطبيعة والجمال ، لكن الصفة الغالبة عليها هي قابيلة الشاعر في رؤية الأشياء من منظور وصفي وبصري آخر ... فيسلط الضوء على دقائق الصورة ، فهو كمصور فوتوغرافي ، يلحن تلك الصور المنتقاة من الطبيعة ، بكلمات جميلة سهلة وسلسلة تزيد في مخيلتنا روح الجمال والتأمل ، في لحظات زمنية معينة استطاع الدكتور البدراني تسجيلها وتصويرها بصورة فنية مختلفة عنما نراه ونتحسسه نحن ... (تتوهم الفراشة / إن ثوبك/ حقل ياسمين؟!)(٣) . فهنا الشاعر يصور لنا مشهدا بسيطا قد يلحظه اي شخص منا ، وهو وقوف فراشة على الفستان، لكننا لن نتخيلها كما تخيلها ، وصور الفراشة ووصفها بانها توهمت بان الفستان حقل ياسمين كدلالة لجمال الفستان وصاحبة الفستان وما تحمله من عبق ورحيق وجمال تجعل تلك الفراشة الخبيرة بالحقول تتوهم، فهذه الهايكو كانت تصويرا وتشبيها لجمال الفستان ...

• هيكلية العنوان

في هايكو عبدالستار البدراني بناء خاص لعنوان القصائد ، فتغلب عليها حالة الوصف والأبهام ثم تتلى بالسطر الثالث والاخير بعنوان ، وكأنها مجموعة كلمات حسية لغزية يختبر القارئ بها مخيلته ، ومن ثم يعثر على الحل في نهاية القصيدة (ليله ونهاره .، / على الأرصفة باحثا عن نوره .، / درويش المدينة.!؟)(٤)، فهنا وصف لنا المكان والزمان ، ثم وصف لنا الحدث والفعل ، ثم تلاها بالعنوان الذي هو قلب القصيدة، وبهذا نجح بإضافة بصمته الخاصة بتأخير العنوان ، وابتعد عن التقليد المتبع في الشعر الكلاسيكي حين كان العنوان يترأس القصيدة ، فقد كان عنوان هذه الهايكو (درويش المدينة) لاحقا لمشهد البحث المتواصل في الليل والنهار، فالتقديم هنا مقصود للتركيز على اهمية المكان والزمان على التعريف والعنونة .

لكن اسلوبه هذا لا يعني غرابة او شذوذ عمله والغاء صفة العتبة والعنونة عنه ، فهو قد اوفى بشروط العنوان التي كان يعرفها الشعر العربي القديم في جلّ شعر على انه ذو غرض ومناسبة ، فيلاحظ أن المناسبة أو الموضوع الذي كانت تقال فيه القصيدة قديما ربما كان يشكل إطاراً لعنوان لم يسمَّ، وكان المطلع يسدَّ مسد العنوان(٥) .. وهذا ما نلاحظه في شعر عبدالستار البدراني : (حي هارلم ..،/ تتنزّه الغزلان عارية .،/جوكر يتلصّص .!؟) (٦) ، فهنا المطلع بحد ذاته (حي هارلم) كان كعنوان للقصيدة كونه يدل على غرض معين ومناسبة محددة ، ففي هذا الحي الذي يعد من اشهر أحياء نيويورك، تخرج منه أعظم عازفي موسيقى "الجاز" في بداية القرن العشرين، وراقصي ديسكو الشوارع، وفريق "هارلم" العجيب لكرة السلة ، فالقارئ سيرفق كل

هذه المعلومات في مخيلته حين يمر بعنوان "حي هارلم" ، وبعدها تتطور الصورة لديه باضافة "غزلان عارية تتنزه" استعارة للنساء الجميلات اللتي يتجولن في باحات الحي ، ويضيف حين يشبه نفسه بذلك المتلصص السارق للنظر لما يحدث في هذا الحي من عزف للموسيقى وتنزه للجميلات...

"عدَّ العنوان للبعض على أنه نظام سيميائي ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته، ومحاولة فك شيفرته الرامزة. .... فهو يشكل حمولة دلالية، فالعنوان قبل ذلك علامة أو إشارة تواصلية له وجود فيزيقي/ مادي، وهو أول لقاء مادي محسوس يتم بين المرسل (النَّاص) والمتلقي أو مستقبل النَص. ومن هنا يغدو العنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي ، يؤسس لفضاء نصي واسع" (٧) . (حولها العصافير .، / تتمايل على كتفها السنابل .، /سيدة الحصاد .!؟) (٨)، فالمتلقي لهذا النص ستبدأ لديه عملية التأويل والتفسير الذهني لحظة أداركه عنوان القصيدة وهدفها ، وهو (سيدة الحصاد) ، ففي هذا المشهد سيتخيل المتلقي هذا النص من خلال التضمين الشعري بانها سيدة تحوم حولها العصافير وهي سيدة ريفية تحصد سنابل القمح .... استطاع القارئ الوصول لفكرة وجوهر سيدة الحصاد وبانها تعيش في الحقول من خلال دمج المعنيين الحرفي الذي اباح به الشاعر مع المعنى والخبرة الموجودة مسبقا في مخيلة القارئ ، فهنا النص قد يفجر ما كان هاجعاً أو ساكناً في وعي المتلقي أو لاوعيه مع حمولته الثقافية أو الفكرية فيبدأ المتلقي معها فوراً عملية التأويل والاستنتاج والاستنباط(٩)... وهذا ما يدل على حيوية وديناميكية النص المتعدد التأويل الذي كلما زادت قراءاته كلما زادت جمالياته ..

• بناء الصورة الشعرية

الصورة كما يعرفها د. نعيم اليافي " وحدة تركيبية معقدة تتبلور فيها شتى المكونات، الواقع والخيال، اللغة والفكر، الإحساس والإيقاع، الداخل والخارج، والأنا والعالم.... الخ ، يتناسج فيها الذات والمحيط ويتشابكا ليؤلفا "الصورة الشعرية" التي هي أداة الشعر الرئيسة ووسيلته الوحيدة لتحقيق أدبيته" (١٠). فتتباين الصورة لدى الشاعر بانواعها العديدة أبرزها التشخيصية والتجسيدية ... (فوق شفتيها .،/ ترسم شفتاي .،/ قبلاتي الممنوعة .!؟) ص٨ ، فهنا الصورة الجمالية ، تحمل معنا حسيا تجسيديا فهي تجسد من خلال وصفها لعملية التقبيل شكلا من اشكال القبل الممنوعة والمحرمة ، بل من خلال تعابيره هذه استطاع ان يوصف لنا صورة مكانية تشير كون شفتيها اسفل شفتيه ... ومن هنا تظهر مقدرة الشاعر على ايصال الإحساس والتعريف في هذا الهايكو بطريقة تصور للمتلقي الذات بصورة واضحة ومتألقة بعبق الجمال والحب المفعم بالحيوية ، الذي هو احد اهم مصادر ومتطلبات قصيدة الهايكو .

أما هايكو المسيح : (طريق الجلجة ..،/تتعثر بدمه نائحة .،/ مسامير المسيح .!؟) ص١٢ ، قصيدة الهايكو هذه تحمل صورة شعرية مثالية ومتطابقة للتعريف السابق للدكتور اليافي ، حيث يدمج فيها الإحساس والإيقاع، الداخل والخارج ، فالصورة هنا تبلورت من اصوات وموسيقى حملتها كلمات (جلجة /نائحة/ومسيح) تصور لنا صورة تاريخية وانسانية وعاطفية ملحنة بأصوات جلجلة السلاسل الحديدية لتؤثر في الآخرين بأسلوب فني رفيع... فتعكس آلام السيد المسيح وتحمله للاعباء وللالم ، لكنه بقى لنا رسولا للسلام والمحبة والوئام .

" ومهما " تغيرت مصطلحات الشعر وتسمياته وأنماطه (كالهايكو ، التانكا ، الكلاسيكي ، العمودي ، الحر والنثر) تبقى الصورة الشعرية التي يرسمها الشاعر وساطة التعبير فيه، وأداته الرئيسة، وتظهر أصالة الشاعر، وتدلّ على قيمة فنه، وترمز إلى عبقريته وشخصيته، بل وتحمل خصوصيته وفرديته، لأنَّها الأداة الوحيدة التي ينقل بها الشاعر تجربته ومواقفه (١١)

• الترجمة والابعاد الثقافية

تهتم الترجمة بهذا التلاقح الفكري واستنساخ التجارب من مجتمع وثقافة معينة إلى مجتمع وثقافة أخرى، فهي تحاول نسج الروابط وتقليل الهوة بين الثقافات المختلفة ، ولعل الهايكو هذا ببنائه وتركيزه الروحي يفتح افقا جديدا للترجمة ولاهدافها الشمولية والتقريبية بين المجتمعات واللغات شتى ، فهذا العمل الياباني المنشأ استطاع من خلال الترجمة الحفاظ على الياته واهدافه ، فاللغة كما هو معلوم هي وعاء فكري ، والفكرة هي الفكرة ذاتها لا تتأثر بتغير اللغة او الوعاء .. ولعل الاهمية القيمة للهايكو هو قصره واختزاله للفكرة في اسطر قليلة ، مما يتيح للمترجم القدرة على ترجمة هكذا اعمال ، كونها لا تستغرق وقتا طويلا كالروايات والمسرحيات وبنفس الوقت تركز على فحوى النص ومكنوناته ، وكيفية حفاظ المترجم على روح قصيدة الهايكو الاصلية عند عملية الترجمة للغة الاخرى ، فمثلاً :

((بيني وبينهم امتار ..،
يمرّون في فضاء افتراضي .،
اصدقائي القدامى .!؟)) ص ١٩

فالمترجم ببساطة قد يترجم هذه الهايكو الى ترجمتين الاولى حرفية دلالية تعتمد على المعنى الحرفي وتوصف بحفاظها على قصد الشاعر وبانها ترجمة وفية :

(Meters between them and me.., /They passed in a virtual space..., / My old friends.)

أو قد يتصرف المترجم ويترجمها ترجمة تداولية ، فيضيف لها موسيقى ويهتم بمعناها فقط ، لتبدو اكثر طبيعية ومألوفة للقارئ الاجنبي ، وكأنها مكتوبة بلغته الاصلية ، وهذه الترجمة قد يعترض البعض عليها ويصفها بالترجمة الخائنة ، إلا انها بنظري تبقى الترجمة الوحيدة -وكما يقول "ياكوبسون١٩٥٩" والاخرون- الممكنة في عالم الشعر الذي تبقى الموسيقى صفته الغالبة .... (١٢)

(Old Friends are there/ In my big.. Big sky / And just here.. Meters between us / As they pass and say .... say hi)

• المجازات

"يعد المجاز بأنواعه المرسل والاستعارة والكناية ضرباً من التوسع في أساليب اللغة، وفناً من فنون الإيجاز، حيث نرى اللفظ ينقل من مدلوله الأصلي، إلى مدلول جديد، فيبعث على التأمل ويستثير الخيال والتفكير، ويشرع للمعاني آفاقاً عريضة، ترتاح لها النفس ويستسيغها الذوق، لما فيها من توسيع للغة، وافتنان في التعبير، وإيراد المعنى الواحد بصور مختلفة" (١٣) .

وهذا ما يحتاجه الهايكو ، فنلاحظ كثرة المجازات اللغوية للتعويض عن الاطناب في اللغة ، ويحقق المجاز الإيجاز في هذا النوع من قصائد الهايكو ، فيكون المعنى المجازي المراد خير تصوير للمشاعر وللعواصف والمقاصد الحسية واكثرة دقة وجمالية وتماسكا .. لذا فقد اكثر الشاعر الدكتور عبدالستار البدراني من المجازات اللغوية في شعره ، ليتمم صيغاتها الفنية المنبعثة من الطبيعة والحس الرقيق فيقول : (في الشوارع الخالية .،/ العكازة .، /عينا الأعمى .!؟) ص٥ ، فهنا الشاعر ربط العكازة والتي هي الكناية هنا مع عينا الاعمى وهي المعنى اللغوي الحقيقي ، أما وصفه المجازي لبلاده من خلال استعماله الاستعارة فيقول : (أمسح وجهي بجديلتها .،/ تضيء بلاد مابين النهرين .،/ شمس المعارف .!؟) ص٥ ، في هذا الهايكو كان العراق مشارا له من خلال الاستعارة المباشرة بكلمة (شمس المعارف) كون بلاد الرافدين كانت ولا تزال تضيء بالمعرفة وكان مهدا للحضارات والكتابات والاشعار والفنون الخالدة ابد الدهر ، كما ان هذا الهايكو ايضا لم يقتصر على استعارة الشمس للعراق فقط ، بل دمجت في مطلعها كناية (جديلتها) لنهري العراق وهما دجلة والفرات ...

ان الاستعمال المتقن لهذه الانواع من المجازات في هايكو الشاعر البدراني ان دلت على شيء فإنما دلت على مقدرته وقدرته العالية في التصرف والتلاعب اللغوي الذي يضيف للنص جمالاً ودلالات عديدة ، ويرسم فضاءات ورؤى حسية وتأملية تشد مخيلة المتلقي نحو براعة النص وسلامة حبكته ..

• الاستنتاجات

١. تطرح قصيدة الهايكو نوعا وجنسا ادبيا هجينا وجميلا ، يدمج بين خبرات الشعوب الفنية واعتمادها للطبيعة كرابط انساني موحد .

٢. مصادر الهايكو متعددة ، كالجمال ونقاء الروح والسلام والوئام ، فهي قصيدة رومانسية اكثر من كونها قصيدة مدح او ذم او هجاء ، فهي تحمل في نظري بصمات العولمة الإيجابية التي تواكب متطلبات هذا العصر من السرعة والمبادئ المشتركة والتواصل الانساني .

٣. رغم قصر قصائد الهايكو ، إلا انها قصائد مكثفة في الصورة ومحبوكة في الهيكلية والعنوان، لا يخلو منها المجاز والوصف الفني الدقيق ، مما يجذب فكر واهتمام المتلقي لهذا النوع اكثر فأكثر.

٤. تعد الهايكو ميدانا وحقلا خصبا للدراسات الثقافية والترجمة ، فيمكن من خلالها فحص توجهات الشعوب المختلفة واذواقهم ، ويساعد المترجمين في ذلك قصر مادتها وتركيزها على المضمون الفكري في هذه القصائد الجميلة ..

• المراجع

(1) - Max Verhart , Haiku in the Netherlands and Flanders : http://kulturserver-nds.de/home/haiku-dhg/Netherlands.htm

- (2)أ.د. بشرى البستاني ، الهايكو العربي بين البنية والرؤى ، الحوار المتمدن- العدد: ٤٨٣٣ - ٢٠١٥ / ٦ / ١٠ .

-(3) - عبدالستار البدراني ، تنام العصافير حالمة ، سلسلة شعراء نادي الهايكو العربي (١) ، نادي الهايكو العربي ، ٢٠١٥ ، ص٥

-(4) - بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، ط١- ٢٠٠١م، ص٦

-(5) – بسام قطوس، ص ٣٤.

-(6) - عبدالستار البدراني ، مصدر سابق ، ص ١٢

-(7) – بسام قطوس، مصدر سابق، ص ٣٦

-(8) - عبدالستار البدراني ، مصدر سابق ، ص ١٥

(9)- see: Yule, G. (2006). Pragmatics. Oxford : Oxford University Press

– (10) د. نعيم اليافي ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، بيروت ، ص ١٧٤.

(11) - Mariwan Nasradeen & Hasan Barzinji , (2012). The Image of Modern Man in T. S. Eliot's Poetry. Author House

(12) - see Munday , J.(2013) . Introducing Translation Studies: Theories and Applications. London and New York: Routledge.

- (13) - د. عبدالفتاح لاشين ، البيان في ضوء أساليب القرآن ، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٠م ، ص ١٥٧ .